في ذاكرة الزمان والمكان (6)
(حيفا)

في وادي النسناس



روضة الفرخ الهدهد

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022/5/2607)
813.9282
الفرخ، روضة فهيم
في وادي النسناس : حيفا / روضة فهيم الفرخ .- عمان: المؤلف، 2022
( ) ص .- (سلسلة في ذاكرة الزمان والمكان؛6)
ر. إ. : 2022/5/2607.
الواصفات : /القصص العربية//أدب الأطفال//الأدب العربي///العصر الحديث/



الأديبة

روضة الفرخ الهدهد

صدر للمؤلفة الكتب التالية للاطفال :

- سلسلة حكايات بطولية للأطفال (1-26) تناسب الطلاب من الصف الرابع.
- سلسلة حكايات الغول (1-3) تناسب الطلاب من الصف الثاني.
- سلسلة قصص الصحابة (1-2) تناسب الطلاب من الصف الرابع.
- سلسلة المسرح للأطفال (1-8) قدمت على المسارح الأردنية .
- كتب الطفولة المبكرة (1-5) تناسب الطلاب من الصف الأول الأساسي.
- سلسلة حكايات علمية وأخرى (1-8) تناسب الطلاب من الصف الرابع .
- سلسلة في ذاكرة الزمان والمكان (1-6) تناسب الطلاب من الصف الرابع .

كما صدر للمؤلفة :

- كتاب اليافاوية باللغتين : العربي والإنجليزي سيرة ذاتية (1).
- كتاب من يافا إلى عمان مع المحبة "سيرة ذاتية " سيرة ذاتية (2).
- كتاب ثقافة الأطفال في الأردن.

تصفح السيرة الذاتية واقرأ الكتب على موقع الكاتبة

Website: www.rawdahudhud.com

E-mail: rawdahudhud@msn.com

تطلب الكتب من دار كندة :

Tel: +96265929282 Fax: +96265922145

P.O.Box: 815331 Amman 11180 Jordan

في ذاكرة الزمان والمكان (6)

(حيفا)

في وادي النسناس

الكاتبة

روضة الفرخ الهدهد

رسوم وإخراج الفنان : رائد القطناني

دقق النص : الكاتب محمد عواد

مقدِّمة

ظل وسيظل حلم العودة لفلسطين حقًا لكل فلسطيني وفلسطينية ترك أرضه قسرًا وظلمًا عندما احتلها اليهود الصهاينة ..

كما ظلّ حلم العودة عند الأخوات : ازدهار"ازدي" وافتخار "افتي" و انتصار "انجي" يراودهن للعودة إلى فلسطين ، حتى بلغن السبعينيات من العمر ، فلمّا سافرن لفلسطين لزيارتها قابلهن الرجل الغريب مع أكواب سحرية ، وعصير برتقال سحري حيث عُدْن إلى عمر الطفولة ؛ فزُرْن مدن فلسطين السليبة : "يافا، عكا ، حيفا ، القدس، الناصرة ، اللد .." كما كنَّ يَزُرْنَها من قبل.

فمن كان هذا الرجل الذي يسحبهن أويتبعهن إلى هذه المدن؟! وما دور قطته السوداء في رحلة الفتيات العجيبة ؟.

في القدس تركت "أفتي " أختيها لتبقى مع المرابطات حول المسجد الأقصى.. وسافرت "ازدي" و"انجي" إلى مدينة حيفا وحدهما مع الرجل الغريب ، فهل ستلتلقي الأخوات مجددًا ؟!

تلك حكايات: " من ذاكرة الزمان والمكان "، وذلك مشروع "هذه مدينتي" ...

روضة الفرخ الهدهد


بسم الله الرحمن الرحيم

فِي صباحِ يـوم الجمعـة الباكـر ، حـضرَ الرجـلُ الغريـبُ إلى منـزلِ السّـيدةِ رؤوفـة ؛ عمَـةِ البنـاتِ ، وطَلَبَ منهنَّ أن يتَجهّزنَ للسفرِ معهُ إلى حيفا.. فهو لديهِ موعدٌ مهمٌّ في "وادي النِّسناس".

ولمْ تكـدْ "انجـي" تسـمعُ كلمـةَ "وادي النسـناس" ، حتـى انتابهـا خـوفٌ شـديدٌ . فـأيُّ وادٍ هـذا الـذي سـيأخذها إليـهِ هـذا الرجـلُ .. ولمـاذا يجـبُ عليهـا أنْ تذهـبَ معـهُ ؟ ومـاذا في "وادي النِّسناسِ" هذا ؟

احتمـتْ بأختِهـا "ازدي" تطلـبُ منهـا أنْ ترفـضَ الذهـابَ معـهُ .. التصقـت بالحائـطِ وتمسـكتْ بالبـابِ، انهالـتْ عيناهـا بالدّمـعِ ، أيُّ مـكانٍ سـيذهبُ بهـا وبأختِهـا هـذا الرّجُـلُ؟ إن أختهـا "أفتـي" لمْ تعـدْ بعْـدُ ، فقـدْ تركـتِ البيْـتَ منـذُ الفجـرِ ولمْ تعـد لـلآن ، فكيـف سـتَترُكُها وتسـافرُ ؟ وإلى أينَ ؟ وكمْ ستبتعِدُ عن القدسِ ؟



وعـادَ إلى ذهنِها كلمـةُ "وادي النِّسـناس" فخافَـتْ أكـثر ، وتمسّـكتْ بأختِهـا وعمّتهـا رؤوفَـة لا تريـدُ أن تَتْرُكَهُـما .. تذكـرَتْ قصـصَ ألـفَ ليلـةٍ وليلـة التـي كانَ والدُهـا يقصُّهـا عليهـا ، وظنّـت أنَّ "وادي النِّسـناس" هـذا في بلـدٍ بعيـدٍ بعيـدٍ ، في "جبـالِ الـواق الـواق" حيـثُ الحيّـةُ بحجـمِ الفيـلِ، وحيـثُ طائـرُ الـرخِّ بقـوةِ ألـفِ حصـانٍ ، يَنقـضُّ عـلى وادي الألمـاسِ وفي فمـهِ خـروفٌ مسـلوخٌ ، فيحمِـلُ ألـفَ قطعـةِ ألمـاسٍ منـهُ .. فهـل وادي النسـناس هـذا مثـلُ وادي الألمـاسِ في قصّـةِ "ألـفُ ليلـةٍ وليلة" ؟ وهل سيأتيَ طائرُ الرخِّ لحملِها هيَ وأختَها لرميِهما في "جبلِ الواق الواق" ؟

لمْ تستـمر في التفكـيرِ ، فقـد امتـدتْ يـدُ الرجـلِ وقبضـتْ عـلى يَدِهـا مـن جهـةٍ ، وعـلى يـدِ أختِهـا "ازدي" من جهةٍ أخرى ، وانطلقَ بهما إلى البابِ ، ومنهُ إلى الدَّرجِ العتيقِ وإلى محطةِ القطارِ .

حيـثُ ركبُـوا القطـارَ المتجـهْ مـن القـدسِ إلى حيفـا .. وبعـدَ قليـلٍ نامـتِ الفتاتـانِ والدمـوعُ تمـلأُ حلقيْهما وعينيهما.

رأتْ "أنجـي" حيوانًـا أليـفَ الشـكلِ .. يُشـبِهُ النِّسْـناسَ، بـلْ يُشـبهُ القـردَ أو الشـمبانزي أو الغوريـلا ؛ وقدْ أقبلَ عليْها ليُهاجمَها ، صرختْ منَ الرُّعبِ وأخذتْ تضرِبُه بيديْها وقدميْها ..



ولكنّها عندما رأتْ وجهَ أختها "ازدي" وقدْ جُرِحَ وسالت منهُ الدماءُ ، وسمعتْ أختَها تهدْهِدُها وتربِّتُ على ظهرِها وتقولُ لهَا .. "انجي" حبيبَتي ما الأمرُ ؟ .. لماذا تَضرُبينَني هكذا ؟ " انجي" حبيبَتي استيْقظي فقدْ وصلْنا حَيْفا، أدركتِ الأمرَ، فقد وصلوا محطّة القطارِ في حيفا ...

دُهشَت الفتاتان لعددِ الجهاتِ التي ينطلِقُ منها وإليها القطار: إلى دمشق، إلى القاهرةِ، إلى غزة، إلى القدسِ وإلى الحجازِ. فعلمتا أنهما في مدينةٍ فلسطينيةٍ مهمّةٍ.

عادَ الرّجُلُ ليمسِكَ "ازدي" و "انجي" ، نزلَ معهُما إلى المحطّةِ واتجهَ الجميعُ إلى حيثُ أرادَ .. فجأةَ قرأتْ "ازدي" يافطةً كُتِبَ عليها باللغةِ العربيةِ : "ساحةُ الحناطير" ، ثمّ يافطة أخرى : "بُرجُ الساعة" مكتوب عليها (بُنِيَ تكريمًا لذكرى جلوسِ السلطانِ العثمانيّ عبد الحميدِ الثّاني على العرشِ) مشى الجميعُ بضعَ دقائقَ ، فقرأتْ يافطةً ثالثةً : "حي الحليصة" ..

و "مسجد سيّدنا محمود للجماعة الأحمدية"، "حي الكبابير".. ولمْ تكد تمرُّ دقائقُ أخرى حتى شاهدتْ "كنيسةَ السيّدة للروم الكاثوليك" مكتوبٌ عليها (بُنِيَتْ عام 1862) ، ثمّ كنيسةَ أخرى باسم "كنيسةُ مريم العذراء اللاتين" وكنيسةَ ثالثةَ و رابعةَ ..



وبينـما هـي تنظـرُ يمينَها وشـمالَهَا إذا بأختِهـا "انجـي" تشـدُّ عـلى يدِهـا بقـوةٍ وتـصرخُ .. "ازدي" انظـري إنـهُ وادي النسـناس ، والتصقَـتْ "انجـي" بأختِهـا . بينـما انحنـتْ "ازدي" عليهـا تَحتضِنُهـا وتقـولُ : لا تخـافي يـا "انجـي" ، إنّـهُ مـكانٌ سـكنيٌّ ليـسَ إلّا .. اسـمه هكـذا لكنّـهُ مـكانٌ فيـه بيـوتٌ وعماراتٌ وجوامعُ وكنائسُ ، مثلُه مثلُ باقي أحياءِ مدينةِ حيْفا.

ولكـنَّ "انجـي" لمْ تهـدأْ .. فقـدْ أخـذتْ تنظُـرُ لليافطـةِ لحظـةَ ولوجـهِ الرجـلِ المرافـقِ لهـما لحظـةً ، أحسّتْ أنَّ هذا الرَّجُلَ هوَ "النسناس" وأنّ هذا الوادي مَكانَه .. فإلى أينَ يَأخذهُما ؟! .

التصقتْ بـأختِها هامسةً :

- لنْ أذهبَ معكُما إلى وادي النِّسناسِ هذا ...

ولكنَّ يدَ الرجلِ وقبضتَهُ كانت أقوى مِنها ومِنْ أختِها ، فقدْ أمْسكَهُما وقال:

- تعـالا .. سـنذهبُ لآداء صـلاةِ الجمعـةِ في مسـجدِ الاسـتقلالِ ، أهـمّ مسـجد في حيفـا ، حيـث يخطبُ في المسجدِ الشيخُ الجليلُ "عزّ الدينِ القسّامِ" .


سيدة للروم الكاثوليك
ساحة الحناطير
برج الساعة
حي الك
مسجد
حي الحليصة

لوهلـةٍ أحسّـتْ "ازدي " أنّهـا سَـمِعَتْ اسـم "مَسْـجد الاسـتقلالِ " مـنْ قبـلُ .. بـلْ إنَّ "انجـي"
كرَّرتْ وراءَ الرجُلِ بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ :

- مسجدُ الاستقلالِ والشيخُ عزُّ الدينِ القسّامِ ؟!

اقتربتْ من أختِها تَقُولُ :

- هـلْ هـوَ الشـيخُ الـذي طالمـا حَدَّثنـا عنـهُ والـدي - رحمَـهُ اللـه - أنّـهُ أشـعلَ الثـورةَ ضـدّ الإنجليز في حيفا ، بل في كلِّ فلسطين؟

قالتْ "ازدي" :

- نعـمْ هـوَ.. أتذكريـنَ كـم حدّثنـا عنـهُ والـدي ، وكـمْ قرأنـا عـن بطولاتِـهِ وبطـولاتِ جماعتِـهِ الذين اشتركوا في الثورةِ معهُ ضدّ الإنجليز[1].

أضافت "انجي" بحماس :

- بلْ ضدّ اليهود أيضًا ، وضدّ دُخولِهم إلى أراضِي بلادِنَا فلسطين واحتلالِهم أراضِينا وبُيوتنا .

(1) اقـرأ سـيرة الشـيخ المناضـل عـز الديـن القسـام، وثورتـه ضـد الانجليـز وضـد هجـرات اليهـود إلى فلسـطين واستشـهاده عـلى أرض فلسـطين في عـام 1935 من كتاب المؤلفة روضة الفرخ الهدهد : "في أحراج يعبد".



واقتربتْ "انجي" من "ازدي" هامسةً :

- احـترتُ يـا أختـي . هـلْ هـذا الرجـل معنـا أم مَعهُـم ؟ أحيانـاً أُحـسُّ أنّـهُ مثـلُ عمّـي .. يُريـدُ أنْ يُرِيَنَـا كلّ جـزءٍ مـن أراضي بلدِنـا فلسـطين . وأحيانًـا أخـافُ منـهُ ومِـنْ نظـراتِ عيْنيْـهِ الغريبـةِ .. وأتساءلُ كيفَ استطاعَ استعادةَ أختَنا "أفتي" من السجن في القدسِ بهذهِ السّهولةِ؟ أتذكرين ؟

- لا تحتاري يا "انجي" ولا تفكّري كثيراً .. هيّا فقدْ وصلْنا الجامعَ.

- لا بـل أنـا محتـارةٌ حقـاً، فمـنْ هـوَ هـذا الرجـلُ الـذي يلاحِقُنـا ولا يَترُكُنَـا لحظـةً واحـدةً .. ومـاذا يَفعلُ هنا في حيفا ومعَ الشيخِ عزِّ الدينِ القسَّامِ ؟ لعلَّهُ جاسوسٌ.. أو لعلّهُ مُناضلٌ حقيقيٌّ؟!

دخـلَ الرجـلُ إلى الجامـعِ ، بينـما وقفـتِ الفتاتـانِ تنْتظِرانِـهِ .. ومِـن زاويـةٍ بعيـدةٍ وقفـتْ "انجـي" تَنظُـرُ إلى داخـلِ الجامـعِ حيـثُ شـاهدت الرجُـل يُعطِـي كيسًـا لشـيخِ الجامـعِ .. لمْ تعـرفْ مـا بداخِلِـهِ ، ولكنّـهُ كان كيسًـا طويـلًا طولُـهُ أكـبرُ مـن عرضِـهِ ، قبـضَ عليْـهِ الشـيخُ بـكلِّ اقتـدارٍ ونظـرَ في داخلِـهِ ، بيْنـما عينـاهُ تذهـبُ يمينًـا ويسـارًا للتأكُّـدِ مـنْ أنّ أحـدًا لا يـرَاهُ.. وبهـدوءٍ سحبَ ما بداخِلِ الكيس ، فإذا هُوَ "بندقيّة" .



خافتْ " انجي" وانسحبتْ من مكانِها وعادتْ إلى أختِها :

- يعطيهِ بارودةً يا أختي ، أرأيتِ !! هذا الرّجل يحيُّرني .

- أعطاهُ بارودةً ؟!

ولمْ تكدْ تلفظ الكلمة حتى انقضَّ عليها فتىً كانَ يراقبهما دون أن ترياه.. وقالَ بعنفٍ:

- ماذا تفعلينَ هنا أيَّتها الأخت؟!

خافـت "انجـي" والتصقـت بأختهـا "ازدي" تحتمـي بهـا .. عندهـا ظهَـرَ الرّجـلُ وأمسـكَ بيدِهـا قائلًا للفتى :

- لا تخفْ إنها ابنةُ أخي .. وهي وأختها في رحلةٍ إلى حيفا للتعرفِ عليها ..

قال الفتى باحترام كبير : - أهلًا عمي الحاج .. أهلًا بك في حيفا.

نظـرت ازدي إلى أختِهـا نظـرةً عميقـةً وكأنّهـا تقـولُ لهـا : لعلّنـا ظلمْنـا الرجـلَ لأنّـهُ يقـول أننـا ابنتا أخيهِ.

أمسكَ الرجلُ بيدِ الفتاتيْن قائلًا:

- هيّـا بنـا .. دعـونِي أمـرُّ بكُـما عـلى منظـرٍ لمْ تريانِـهِ في حياتِكُـما ، ولـنْ تريـا أجمـلَ منـهُ .. دعونـا نذهبُ إلى جبلِ الكرملِ ، فقدْ أنهيتُ مهمّتي وقابلت الرجل في هذا المكان .. هيا..



مشـت الفتاتـان خلـف الرجـل وإذ بيافطـة "سـاحة الحناطـير" تظهـر لهـما مـن بعيـد. وهنـاك ركبتـا والرجـل حنطـورًا يجـره حصانـان ؛ أحدهـما أبيـض والآخـر أسـود .. وعـادت السـعادة ترفـرف في قلبيهـما والحصـان يمـشي مشـية "الخبـب" عـلى أرض حيفـا .. وبـدأت العربـةُ تصعـدُ بهـما رويـدًا رويـدًا مـن مسـتوى البحـر الأبيـض المتوسـط إلى الأعـلى .. إلى جبـل الكرمـل ، هـذا الجبـل الـذي كـما قـال لهـم السـائق يرتفـع حـوالي 550 مـترًا مـن شـاطئ حيفـا عـلى البحـر الأبيض المتوسط .. منظرٌ يسحرُ الألبابَ .

تصعـدُ وتصعـدُ في العربـةِ وتنظـر خلفـكَ ، فـإذا شـاطئُ البحـرِ يبتَعِـدُ ويبتعـدُ عنـكَ .. ولكـنَّ البيوتَ والسهولَ والأشجارَ والحدائقَ تملأُ المكانَ.. ترتفعُ وترتفعُ ويزدادُ الجمالُ والبهاءُ .

قال سائق العربة :

- انظـروا هنـاك ، هـذه الأسـوارُ التـي تحيـطُ بمدينـةِ حيفـا السـاحلية بناهـا الشـيخ الفلسـطيني "ظاهـر العمـر" عندمـا حكـم شـمال فلسـطين ، وانظـروا هنـاك إلى "البلـدة التّحتـى" .. أو كـما نسـمّيها "المدينة السفلى" وهي المركزُ الصناعيُّ والتجاريّ للمدينةِ، وفيها أهمّ ما يميِّز حيفا : الميناء.



هـلْ تشـاهدونَ هـذه القبـاب الكبـيرة هنـاك؟ إنهـا مصفـاةُ البـترول أهـمُّ معلـمٍ في حيفـا .. حيـثُ يَصلنـا البـترولُ مـن آبـارِ النفـطِ في العـراقِ ويقـوم العـمّالُ في المصفـاةِ بتكريـرهِ حتّـى يتِـمّ شـحنهُ بالسفنِ إلى أوروبّا من ميناءِ حيفَا.

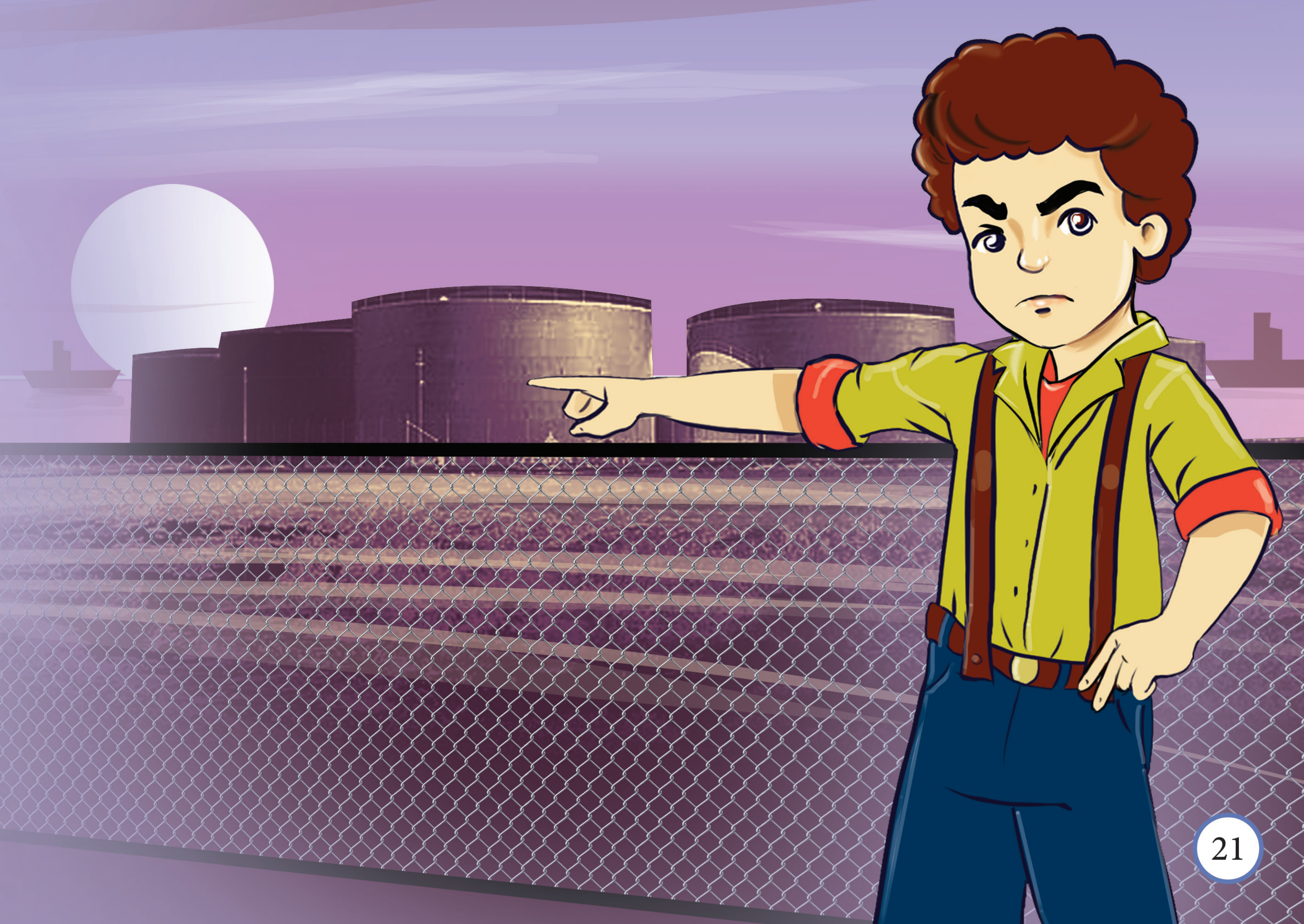
أمّـا الآن فقـدْ وصلْنـا "الطبقـة الوسـطى" مـنَ المدينـةِ ، وهـيَ تتضمّـنُ الأحيـاء السـكنيّةِ القديمـةِ وتمتد على سفح هذا الجبلِ الرائعِ .

والتفتَ إلى الجهةِ الأخرى قائلاً:

- انظـروا هنـاكَ حيـثُ هـذِهِ البيـوتُ الجميلـةُ .. إنّهـا بيـوتُ الحـيِّ الألمـانيِّ؛ بيـوتٌ بناهـا المهاجـرون الألمـان عـلى الطِّـرازِ الأوروبيِّ، فمدِينَتِنـا فيهَـا كلّ أنـواعِ الأبنيـةِ : الشرقيَّـةِ والغربيَّـةِ ، الكبيرةِ والصغيرةِ.. ذاتِ الطابقِ الواحدِ أو عدّة طوابق . مدينةٌ رائعةٌ أليس كذلك ؟

وهـزتِ الفتاتـانِ رأسـيْهما ، وهـما تُمسِـكانِ بقبضـةٍ حديديـةٍ عـلى أطـرافِ العربـةِ خَشـيَةَ السـقوطِ ، فالعربةُ تصعدُ وتصعدُ بهما والمنظرُ يزدادُ جمالًا .

همستْ "انجي" لأختها : ولماذا يجيءُ الألمانُ ليسكنوا هُنا في حيفا؟



قالَ السائقُ وقد فَهِمَ سؤالَها دونَ أنْ يَسمَعَهُ:

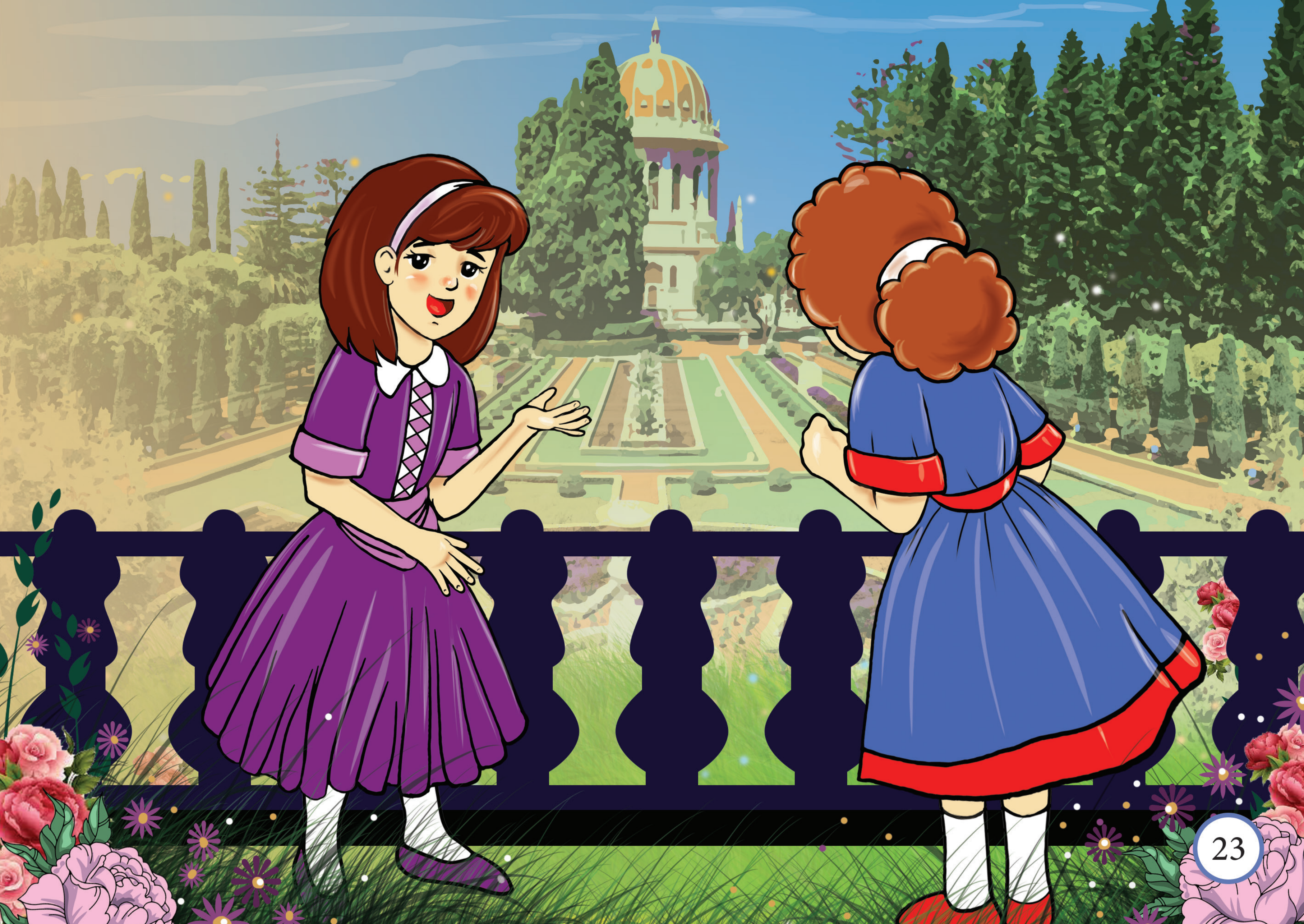
جاءَ حوالي مائة شخصٍ من ألمانيا قبل مائة عامٍ وأحبُّوا أن يسْكُنوا حيثُ مشى الرسولُ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلام، تعرفونَه أليس كذلك؟

إنهُ ابن فلسطِين ولِدَ وعاشَ على أرضِها قبل ألفيّ سنةٍ ، ومشى هُنا على ترابِ حيفا في طريقهِ إلى مدينةِ الناصرةِ.. تعرفونَ هذا أليس كذلك؟

هزتِ الفتاتانِ رأسيْهما أنهُما يَعرفَان ذلكَ، ولعلّهُما لمْ يَعرِفا التفاصيلَ الدقيقةَ تلك. فَمِنْ فلسطينَ انتشرَ الدينُ المسيحيُّ إلى العالمِ كلِّهِ..

أضافَ السّائقُ :

- أمّا الآنَ فقدْ وصلنا إلى قمةِ جبلِ الكرملِ ، وسأقِفُ هنا وأترُكُكُما كالسياحِ ، تُشاهدانَ المنظرَ الجميلَ من "المدينة العليا" والتي تُشرفُ على كلِّ مدينةِ حيْفا: القديمةِ والحديثةِ. فالسيَّاحُ يأتونَ مِن بقاعِ الدُّنيا لرؤيةِ "حديقةِ البهائيّين" و "حيّ الألمانيّةِ" ، و "متحفِ داغون" و "وادي الجِمالِ" و "وادي النسْناس" و "معْبدِ عبّاس" و "حيِّ الكبابيرِ" و "محطةِ الكرملِ" و "الحليصةِ" و "وادي الصّليبِ " .. . و ....



ولمْ تعدِ الفتاتانِ تسمعانِ ما يقولُه السائقُ ، فقد شدَّ انتباهَهُما جمالُ المنظرِ فعلًا حيثُ البساتينُ وأشجارُ النخيلِ والمباني الجميلةُ، فنسيتا كلّ العالمِ حولَهُما !

نزلتِ الفتاتان منَ العربةِ بينما بقيَ فيها الرجلُ معَ السائقِ .. مشتا تحفّهما أشجارُ الصنوبرِ والكينيا والخروبُ وفضاءٌ لا يحدّهُ حدٌّ..

إذا نظرتا الى الأسفلِ شاهدتا البحر الجميل وإذا نظرتا إلى الشرق شاهدتا من بعيدِ قرىً فلسطينيّةً جميلةً ..

عادت الفتاتان إلى العربةِ ، إثْرَ سماعِهما صوتَ الرّجلِ يُنادي عليهِما.. ونزلتْ العربةُ ذاتُ الحصانين نفسَ الطريقِ التي صعداها ، وكان النزولُ أصعبَ من الصعودِ .. فقدْ ظلّتا تُمسكان بقبضةِ الحديدِ على أطرافِ العربةِ خَشْيَةَ السّقوطِ ..

ولكنّ الرجل فاجأَهما بقولِهِ : سأغيبُ عنكما أيامٍ، وستنامان إلى حينِ عودَتي عندَ عائلةِ صديقي "أحمد" في حيّ الميناءِ.

وابتسمت "إنجي" عندما حضرَ أحمدُ، فهو الفتى الذي قابَلهما قُرب جامع الاستقلالِ وهوَ الذي كان سيُلقيَ القبضُ عليها وهيَ تتلصَّصُ داخِل الجامع... !



أيـامٌ مضـتْ والفتاتـانِ تُراقبَـانِ عـودةَ عمّهـما وتَنعُـمانِ برفقـةِ أحمـدَ وعائلتِـهِ ، كانـتْ حركـةُ السـفنِ التجاريَّـةِ في ميناءِ حيْفا أكبرُ تسليةٍ لهُما.. فالسّفنِ الكبيرةِ والصغيرةِ تَدخل وتخرج من الميناءِ في كلِّ ساعاتِ النهارِ بل وبالليل أيضاً. والتجّار يتحركونَ كالنملِ على الرصيفِ... وأحاديث أحمد عن الثورةِ والثوّار لا تتوقّف.. فهوَ يَكرهُ الإنجليزَ الذين يَحكمونَ بلادَهُ، ولا يُحبّ أن يأتيَ المهاجرونَ اليهود الصهاينة إلى أرضهِ لاحتلالِها ... وقد أراهُم عدداً مِن البنادق التي يستخدمُها الثوارُ ضدَّ الإنجليزِ واليهودِ بلْ إنّهُ أخذَهُما يوماً إلى معسكرِ الجنودِ الإنجليز في حيْفا ، مُعسكرٍ كبيرٍ فيهِ السيّاراتُ العسكريّةُ والدّبابات الإنجليزيَّةُ ، ومرقِدٌ للطائراتِ التي كانت قدْ وصلتْ حديثاً من أوروبَّا إلى فلسطين..

قال أحمدُ يومَها :

- أتمنّى لو أنسف هذا المعسكر الذي يتحكم بنا ويجلب لنا اليهود الصهاينة ..

لم يترك أحمد مكاناً جميلاً أو مهماً في حيْفا إلا وأخذَ الفتاتيْن عليهِ: دورِ السينما ، صالاتِ الأفراحِ ، المدارسِ ، المستشفياتِ ، الحدائقِ ، فحيْفا مدينةٌ مليئة بالعملِ والعمّالِ والموظّفينَ والمعلمينَ والأطبّاءِ ..



ولكنّ أجملَ الساعاتِ كانت عندمَا كانَ يأخذهُما إلى السّهلِ السّاحِليِّ شمال وشرق حيْفا حيثُ حقولُ القمحِ وأشجارُ النخيلِ وحدائقُ الفواكهِ والخضارِ... وخصُوصاً أنّ طقسَ حيْفا كان مُناسبًا صيفاً وشتاءً.

ولكنَّ ذلكَ لمْ يَدُمْ ؛ فقدْ جاءَ أحمدُ يوماً صامتاً لا يتحدّث، سألتهُ أمّهُ عن السببِ ، فقالَ بعدَ صمتٍ: لقدْ استشهدَ الشيخُ عزُّ الدينِ القسَّامِ اليوم ومعَهُ عددٌ منْ رفاقِهِ في معركةٍ معَ الإنجليزِ قربَ قريةِ " يَعْبَد" الفلسطينيَّةِ وسيشيِّعُ جثمانُهُ غداً من جامِعِ الاستقلال[2] في " وادي النِّسناس".

وانقبض قلبُ "ازدي" فهلْ معنى ذلكَ معركةً أخرى بيْنَ الجنودِ الإنجليزِ والجماهيرِ التي تحبُّ هذا القائدَ "عزِّ الدينِ القسّامِ"، والتي ستخرجُ في تشييعِ جثمانِهِ.

وصمتتْ بُرهةً ثم قالتْ في نفسِها: وأينَ "عمّي " ، هلْ سيعودُ ليَحضُرَ الجنازةَ .. أم ..أم.. أم ؟!

نهرٌ من الرجالِ والشبابِ حَمَلوا نعشَ الشيخِ عزِّ الدينِ القسَّام والشهداءِ معهُ من وادي النِّسناسِ إلى المقبرةِ ، ولمْ يجرُؤ الجنودُ الإنجليز تركَ معسكرهِم أو الاشتباكَ مع الآلاف منَ المشيِّعينَ .



(2) 1اقرأ عن جنازة الشيخ المناضل عز الدين القسّام في حيفا وموقف الجنود الإنجليز من الجنازة في كتاب "في أحراج يعبد" المذكور سابقاً.



مـرّت الأيـامُ كئيبـةً حزينـةً لا يُسـمعُ فيهـا إلّا أصـواتَ القنابـلِ والرّصـاصِ، ولا يَتحـدّثُ النـاس إلا عنْ العصاباتِ الصهيونيةِ المسلّحَةِ تُهاجمُ العربَ..

كانَ اليهـودُ في أولِ الأمـرِ مسـتكينينَ ضعفَـاء، يأخذُهـم الجنـودُ الإنجليـز مـن الميـناءِ ويُسـكنونَهم في مناطقَ بعيدةٍ عن العربِ و يعطوهُم السلاحَ ويدرّبوهم على الحربِ ضدّ العربِ.

في تلـكَ الليلـةِ البعيـدةِ أذاعـتِ الإذاعـةُ بيانـاً عسـكرياً أعلَنـت فيـه للجميـع أنّ القـواتَ الإنجليزيّـة ستنسـحبُ مـن مدينـةِ حيفـا ومـنْ مـدنِ فلسـطين كلّهـا، كانَ ذلـكَ البيـانُ وتلـكَ الخطـوةُ مفاجـأةً للجميعِ فكيـفَ تَنْسحِبُ القـوّاتُ الإنجليزيَّـةُ ؟ ولمـن سـتتْرُكُ الإدارةَ العسـكريةَ والسياسيّةَ في فلسطين؟ .

فخافَ الجميعُ، حتى أن أحمد قال:

لـن يكـونَ الوضـعُ في أمـانٍ، فالعصابـاتُ الصهيونيَّـةُ تُريـدُ أن تُسـيطِرَ عـلى المدينـةِ ، وقـد بَـدأتْ فعلاً بمحاربةِ الشبابِ الذين يُدافعونَ عنها.





لمْ تفهـم البنتـان الوضـعَ السـياسيَّ أو " العسـكريَّ" أو معنـى "انسـحابِ الجنـودِ الإنجليـزِ"(3) جيـداً ؛ ولكـنّ الـذي فهمتـاه حقًّـا أن "أحمـدَ" غـابَ عـن البيـتِ، وأنّ الصهاينـةَ اليهـود أمـروا أهـلَ البيـتِ جميعاً بمغادرةِ البيتِ استعداداً لنسفِهِ وتدميرِهِ !

يومَها بـدأت أعـدادٌ كبـيرةٌ وكبـيرةٌ جـداً مـن سـكانِ حيفا تتدفـقُ إلى الميناءِ وتتجـهُ إلى السـفنِ لتركبهـا خوفـاً مـن القنابلِ والرصاصِ الذي كانَ يُلاحقهُا...

كانَ الجميـعُ يركـضُ، فركضـتْ الفتاتـان معهـم، كانَ الجميـعُ متوتـرًا فتوتـرت البنتـان مثلهـم، كان الجميـعُ خائفًـا فخافـت البنتـان ، فالرصـاصُ يلاحـقُ الجميـع... حتـى عندمـا شـاهدتا سـائق العربـةِ يركـضُ باتجـاه السفينةِ لم تهتمّا له.

مـا الأمـرُ؟ ومـاذا سـيحصلُ لحيفـا..؟ وأيـن الرجـل بـل وأيـن أحمـد ؟ وإلى أيـن ستتجهُ السـفينةَ التـي استقلاها؟ هذا مالم تعرفانه في حينها أبداً.



للقصة بقية ....

(3) تم الإعلان عن انسحاب القوات الإنجليزية في يوم 21/04/1948،
وتم تهجير سكان حيفا بقوة السلاح والرصاص والقنابل وهُدِمَت البيوت يوم 23/04/1948.